9

تَبَوُّء منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض

كانت المكالمة الهاتفية التي تلقيتها في عطلة نهاية الأسبوع تلك، بمثابة مفاجأة بالنسبة لي. فقد اتصل بي آري إلى منزلي لإبلاغي أنه سيعلن يوم الاثنين الواقع في التاسع عشر من مايو، أيار سنة 2003 استقالته من منصب السكرتير الصحفي بحيث تصبح الاستقالة نافذة اعتباراً من منتصف شهر، تموز، يوليو. كان تعليله لهذه الخطوة غير قابل للبس: قد أُكرِهَ على القيام بذلك.

قبل ذلك بأشهر قليلة، بادر آري في واحد من أحاديثنا العابرة إلى القول إن في نيته الاستمرار في عمله لبعض الوقت. حينها، كان يبدو مليئاً بالحيوية ومتحمساً للقيام بهذه الوظيفة. أعلم أنه كان يستمتع بالفعل بإجراء المقابلات الصحفية ومناوشة الصحفيين تحت أنوار مصابيح الأنوار الساطعة. لكنه كان يشغل هذا المنصب أثناء وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول، والحرب في أفغانستان، وما بدا حينها أن الحرب في العراق قد وصلت إلى نهايتها الناجحة. فقد أعلن الرئيس قبل ذلك بأسبوعين، من على متن سفينة « يو. س. س. لينكولن» قبالة ساحل سان دييغو، وهو يقف أمام لافتةً كتب عليها: «أنجزت المهمة» «أن العمليات العسكرية الكبرى في العراق قد انتهت؛ وأن الولايات المتحدة وحلفاءنا قد أحرزوا النصر». وكان آري قد عانى الكثير من الضغوط أثناء تأديته مهمة كبير الناطقين باسم الإدارة في أوقات عصيبة.

كان آري أيضاً قد تزوج حديثاً، إذ عقد قرانه في شهر تشرين الثاني، نوفمبر السابق. لم يكن بمقدوري تفهم ذلك في حينه؛ إلا أنني، وفي السنين التي تلت، استطعت أن أستوعب كيف تتراكم الضغوطات اليومية المستمرة، وتفعل فعلها في السكرتير الصحفي. فنحن

جميعـاً لدينا كمٌ محدودٌ من المرات التي نستطيع فيها إعادة شحن طاقاتنا. وقد استنفذ آري كل طاقاته.

ذكـر آري في تلـك المكالمة أنه أوصى بأن أحل مكانه. قلت لـه إنه خدم الرئيس بكفاءة عالية وإننا سنفتقده، كما عبرت لآري عن عميق امتناني له.

بعـد أن أنهينـا المكالمة، بـدأ يتكون لدي إحساس بأنني ربما سأُقحَـمُ قريباً في دائرة الضـوء نفسها التي احتلها آري. طبعاً لم أكن حينها متأكداً؛ لكنني شعرت بأنني أظهرت ولائـي الكامـل لبوش. كنت موضع ثقتـه؛ وكانت علاقتنا قوية. برهنـتُ أنني كنت أعرف الأسلوب الذي يرغب الرئيس في ممارسته، وأن لدي تفهماً عميقاً للطريقة التي كان يفكر فيهـا، والمبادئ التـي كانت قراراته تنبثـق منها – لهذه الأسباب مجتمعـة اعتقدت كارن هيـوز أننـي خلف جيد لآري بخبرته في واشنطن. كما أننـي أظهرت أن بإمكاني تنفيذ ما أرادني الرئيـس القيام به سواء على المنصـة أم خارجها. فقد كنت أحل محل آري بشكل ممتاز في العديد من المناسبات؛ وعندما كان في إجازة لمناسبة عقد قرانه، استلمت جميع مسؤولياته، وأجريت العديد من اللقاءات الصحفية لمدة طويلة.

كما أظهرت أنني أحسن التصرف في حالات الأزمات والمآسي؛ وكان آخرها يوم السبت الواقع في الأول من شباط، فبراير سنة 2003. فقد كان آري خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع، عندما انفجر المكوك الفضائي، كولومبيا عند دخوله إلى الغلاف الجوي وتسبب في قتـل سبعة من رواد الفضاء الشجعان كانوا على متنه. في أوقات كتلك، كنت أعرف أن من المهم بشكل خاص تزويد الصحفيين بالحقائق والمعلومات من أجل التاريخ وذلك لكي يكون باستطاعتهم نقل الأخبار إلى الشعب الأمريكي بشكل كامل ودقيق.

بعـد تلقـي المكالمة الهاتفية مـن غرفة الموقع في ذلـك الصباح، توجهـت مباشرة إلى المكتـب. كنـت هناك من أجل مقابلة الرئيس الذي كان قـد عاد مباشرة من كامب ديفيد لتوجيـه خطـاب إلى الأمة، وكنـت أتبع خطواته كظلـه مدوناً الملحوظات بـكل عناية. لن أنسـى أبـداً وقـوفي في المكتب البيضـاوي في الوقت الـذي كان يتحدث هـاتفيـاً إلى أفراد

أسـر رواد الفضاء الذين كانـوا مجتمعين في قاعة المؤتمرات في مركـز كينيدي للفضاء. لم يكـن باستطاعـة أي منا تخيل المعاناة التي كانوا يمرون بها؛ لكننا كنا نعلم أن ما كانوا يعانونـه أبعد من الألم. كل ما كان باستطاعتـي فعله هو الصلاة لأجلهم بطريقتي الأكثر شخصية والأكثر خصوصية، مثلي في ذلك، مثل الكثيرين في تلك القاعة وفي طول البلاد وعرضها.

قـدم الرئيـس إلى أفراد عائلات رواد الفضـاء أصدق عزائه وصلواتـه، واصفاً ذلك اليوم بأنه «يوم مأساوي لأمريكة». بعد انتهاء المكالمة، كان على الرئيس الخروج من المكتب البيضـاوي إلى جناحه الخاص لفـترة وجيزة جداً. فقد آلمه جـداً التحدث إلى العائلات وكان يحتاج إلى ثوانٍ قليلة ليستجمع قواه قبل التوجه إلى حيث سيتحدث إلى الصحفيين حول هذه المأساة في قاعة روزفلت المجاورة.

عصـر ذلك اليـوم، وبعد أن وجه الرئيـس خطاباً إلى الأمة، انضممـت إلى جمع من الصحفيين وقمت بتزويد الصحافة بحقائق ومعلومات عن نشاط الرئيس في ذلك اليوم. وتماماً كما حدث في الحادي عشر من أيلول، كل ما استطعت أن أفكر به هو: لماذا؟ – لماذا كان علـى ذلك أن يحصل؟ وكـم كنت أفضل أن لا أحمل عـبء التعامل مع مسائل كهذه. لكـن كانت هذه حقائـق الحياة في البيت الأبيض: فقد كان علينا دائماً أن نكون على أهبة الاستعداد لنتوقع كل ما هو غير متوقع.

بـدا وكأن كل شـيء كان يحدث بسرعة بعـد أن أعلن آري عن تـرك منصبه. وبحلول منتصف الأسبوع وتحديداً في التاسع عشر من شهر أيار، مايو، قابلت رئيس أركان البيت الأبيض آندي كارد لمناقشة التوقعات من قبل الجانبين. يوم الأحد، تحدثت إلى الرئيس. كان الرئيـس قد استضاف حليفه الحميـم، رئيس الوزراء الياباني كويزومي في منزله في كروفـورد يومي الخميس والجمعة، وأمضى بعدها عطلة نهاية الأسبوع هناك. أثناء رحلة العودة على متن الطائرة الرئاسية، عرض عليّ المنصب بصورة رسمية.

قال الرئيس: «أخبرت الجميع أنه لا حاجة بي إلى البحث عن أي شخص آخر؛ فنحن لدينا الشخص المناسب بحسب رأيي».

أجبـت: «هذا شرف لي يا سيدي. سأبذل كل ما بوسعي كي أخدمك وأخدم بلادي بشكل مُرْضٍ».

وافـق الرئيس على كلامي، وقال: «يجـب أن تشعر أن هذا تشريف لك. إذ ليس هناك العديـد من النـاس الذين يمكن لهم القـول إنهم شغلوا منصـب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. إنها أخوية محدودة العدد».

كان ذلـك الأسبـوع دوامـة بالنسبـة لي. فقـد تغير مجـرى حياتي بسرعـة؛ ذلك أن الواجبـات اليومية التي كان يتعين عليّ القيام بها لم تترك لي سوى القليل من الوقت لكي أدع كل شـيء آخر جانباً وبشـكل كامل، ولكي أتأمل في كل الاعتبارات الضرورية والبعيدة المدى، والتي يتعين عليّ استقصاءها. كنا، الرئيس وأنا، نعرف بعضنا جيداً. كنت أعرف ما كان الرئيس يتوقعه، كما كنت أعرف متطلبات الوظيفة، وكنت أعرف كيف كان يريدني أن أقوم بها. ولكن كان عليّ التأكد من أمرين اثنين.

الأمـر الأول يتعلق بحرية التواصل مع بوش. وعندما تحدثـت إلى الرئيس بشأن ذلك طمأننـي قائلاً: «بالتأكيد؛ فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك من أجل القيام بعملك. سوف يكون بإمكانك التواصل معي في أي وقت تحتاج لرؤيتي».

أما الأمر الثاني فيتعلق بحرية حضور الاجتماعات المهمة. أردت التأكد من أنني سوف أكـون حاضراً في جميع اللقـاءات الرئاسية - بدءاً من اللقـاءات الصحفية حول سياسة الحكومة وانتهاء بالاجتماعات مع قادة العالم - والتي كان آري يحضرها. لن تكون هناك أي مشكلـة حول هذا الأمر أيضاً، هذا ما قاله الرئيس. فكرت في أن أذهب أبعد من ذلك عبر طلب حضور اثنين من الاجتماعات اللذين لم تتم دعوة آري إلى حضورهما. ربما كان علـيّ أن أطلب، لكننـي لم أفعل، ذلك أنني قررت بيني وبين نفسـي أن ذلك يمكن أن يتم طلبه بشكل أكثر فعالية بالتدريج عبر آندي أو عبر قنوات أخرى.

كنـت أعرف ماذا يريد الرئيس عندمـا كان الأمر يتعلق بالسكرتير الصحفي. فهو لم يكـن يريد من الناطق باسمه أن يخرج عن سيـاق النقاط التي عليه التحدث عنها، أو أن يكون في قلب الأحداث من دون مسوغ أو بشكل غير متوقع. ويعود ذلك جزئياً إلى كون بوش

يفضل أن يعلن الخبر بالتوقيت المناسب له، من دون أن يعطي وسائل الإعلام صلاحية ضبط إيقاع خططه. ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن بوش لم يكن يثق بالصحافة الأمريكية التي كان يعتقد بأنها تحمل في طياتها تحاملاً ليبرالياً ضد الجمهوريين. وبحكم أنه يعرف أن على السكرتير الصحفي التعامل مع الصحافة بشكل وثيق على امتداد اليوم، فقد أراد له الرئيس أن يكون على اطلاع على المعلومات الضرورية؛ إلا أن مفهومه لما هو «ضروري»، لا يترك للسكرتير الصحفي سوى مجال محدود جزئياً للحركة.

في المراحل الأولى من رئاسته، وفي تعليق تناقله الطاقم الصحفي العامل في البيت الأبيض قلل الرئيس من شأن آري من دون قصد بالقول إن هناك أوقاتاً سوف يقول لآري فيها إنه لن يطلعه على بعض الأمور. وأضاف، عندما يحصل شيء كهذا، فإنه لا يتوقع من آري أن يحتج على ذلك. في نهاية المطاف حذا العديد من كبار مستشاري الرئيس حذوه في هذا الأمر.

لكن كل شيء كان يحدث بسرعة، ولم يكن لدي إلا القليل من الوقت للنظر في هذا العرض الوظيفي من وجهة نظر أنانية - أي التأمل فيما إذا كانت هذه الوظيفة مناسبة لي. فقد قطعت على نفسي عهداً منذ مدة طويلة بالالتزام بخدمة بوش. وكانت ردة فعلي الأولى، كشخص يؤمن إيماناً راسخاً بالعمل في مجال الخدمة العامة، أن هذا العرض الأخير المقدم لي للعمل بصفة كبير الناطقين باسم البيت الأبيض، ليس مجرد فرصة شخصية عظيمة، بل هو واجب لا بد لي من القيام به. كما كنت أؤمن دائماً بأن الله يفتح أبواباً لحكمة يعلمها هو. شعرت بأن هذا ما يحدث الآن بالضبط. فأنا لم أخطط يوماً للسير في طريق يؤدي بي إلى أن أصبح السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. وما فعلته ببساطة هو أنني ولجت الأبواب التي فتحت لي، وهذه الأبواب أوصلتني الآن إلى هذه اللحظة. ويمكن أن يكون السبب وراء دعوتي لولوج عتبة هذا الباب تحديداً خارج نطاق قدرتي على الاستيعاب؛ إلا أن إيماني بالله وبتدبيره كان لا يساورني الشك فيه.

لكن الطبيعة البشرية تقتضي أن يطرح المرء تساؤلات؛ وفي حقيقة الأمر يفرض علي إيماني القيام بذلك. وعندما توفر لدي الوقت لالتقاط أنفاسي مباشرة بعد قبولي تبوء

هـذا المنصب، أضحت تحفظاتـي حول خوض هذه التجربة من الجدية بحيث إنني أجّلتُ الإعلان رسمياً قبولي لهذا المنصب إلى وقت متأخر من شهر حزيران، يونيو. كانت حجتي في ذلك هي أنني كنت بحاجة إلى الوقت لتحضير نفسي لهذا المنصب بهدوء، وبعيداً عن الأضواء. وعندما ظهر نبأ تعييني في منصب السكرتير الصحفي إلى العلن، فقد تلاشت هـذه الفرصـة. لكنني اغتنمت هـذه الفسحة من الوقـت للتشاور مع بعضٍ من أكثر من أثـق بهم من المستشاريـن - أستاذي السياسي، ووالدتي، وأخي الأكبر مارك، الذي يتمتع بكثـير مـن الحكمة، (والذي كان يتميز بالمنطق العام بالرغـم من موقعه المزدوج بوصفه حامـلاً لشهادة الدكتوراه وكطبيب) بالإضافـة إلى أحدث عضو في دائرتي المغلقة وأعني بها خطيبتي جيل (كنت قد طلبت يدها في نهاية شهر آذار، مارس).

شجعوني جميعاً على قبول هذا العرض الذي وصفوه بالفرصة العظيمة. كما نصحوني بالاستمـرار في هذا الموقع لسنتين كبداية، وذلك للتأكـد من مجرى الأمور؛ وفي أي حال، فإن هذه التجربة ستكون مفيدة لي بشكل استثنائي.

لكـن ذلك لم يخفف من شكوكـي. كنت أتساءل فيما إذا كنت أرغـب، في واقع الأمر، في أن أكـون في دائـرة الضـوء في واشنطن التي تعج بالقبح والخِسّـة. ونظراً لأنني نشأت في كنـف أمٍّ انخرطتْ في العمـل السياسي، فلم أكن ألقِ بالاً أبداً للإحساس بالمرارة الذي يتغلغـل في لغـة الخطـاب، وبالتحديد، في واشنطن. هـل كنت حقيقةً، أرغـب في أن أضع نفسـي - والآن، جيل - تحت المجهـر السياسي؟ لم أكن لأعير الإهانات والتنابذ بالألقاب أي اهتمام أكبر من الاهتمام بالسهام التي كانت تطلق باتجاه والدتي عندما كنت صبياً. ربما علمتني تجربة الصبا تلك، أن لا أنزعج على الإطلاق من أسوأ أشكال التهجم المبني علـى الكراهيـة، أو المنبثق من روح خسيسة. ولكن هل يستحـق الأمر كل هذا العناء؟ كان شيء ما، حول هذه الحال، يعتصرني من الداخل.

كان السـؤال الكبـير يتمحور فيمـا إذا كنت سأتمتع بقـدْرٍ وافر مـن الحرية والمرونة والتسهيـلات التـي ستساعدني في القيـام بعملي بشـكل مُرْضٍ، وفي أن أكـون السكرتير الصحفي الذي أملت أن أكونه. هل سأكون مؤتمناً على السبب الحقيقي وراء كل قرار مهم

تتخـذه الإدارة؟ هل سيسمـح لي في أن أكون شاهداً على التداخـل بين الضغط السياسي والمصلحـة القوميـة التي تساعد في صياغة القـرارات السياسية - أم أننـي سأُزَوَّدُ فقط بالمنتـج النهائي، ويطلب إليّ القيام بتسويقـه تدريجياً؟ هل سيكون بإمكاني القيام بشكل دائـم بالمساهمة في صياغة الرسالة التي تريـد الإدارة توجيهها، والتأثير في وجهتها نحو الشفافية والصدق، أم أنني سأُتركُ في الظلمة أحياناً؟

لم يكـن حينها من السهل علي شرح كل تلك الهواجس للأشخاص الذي لجأت إليهم من أجل إسداء النصح الشخصي. كان من المتوقع أن تكون عشتَ هذه التجارب بنفسك في البيـت الأبيـض في عهد بوش. الآن فقط أضحى باستطاعتـي تقدير كل ذلك والتأكد مـن أنه كان علي بذل جهد أكبر لتغييره حينهـا - ليس بالتدريج بعد أن بدأت العمل، بل قبل أن أوافق على قبول العرض.

لقـد تمـت طمأنتي إلى أنـه سيكون بمقـدوري ممارسة حريـة التواصل مـع الرئيس والاطـلاع علـى معظم الاجتماعات الرئاسيـة، وكان هذا يعني أنني سأكـون شاهداً على صياغـة العديـد من السياسات التي يتوقع مني أن أقوم بالدفاع عنها. وكانت هذه معاملة معياريـة للسكرتـير الصحفي للبيت الأبيض، وكانت غاية في الأهميـة. فلكي يكون عمل السكرتير الصحفي فعالاً، عليه أن يكون مطلعاً على مجريات الأمور.

لكـن كان من الواضح أن قيوداً ستكون مفروضة على حرية التواصل تلك. فتماماً مثل آري، سوف لن أدعى إلى بعض المناقشات الحساسة المتعلقة باتخاذ القرارات، خصوصاً تلك الاجتماعات التي تعقد على نطاق ضيق، وغير رسمي، والتي كان بوش يرغب أن تبقى المعلومـات حولها في أضيق نطاق ممكن، ومقتصرة علـى أقل عدد ممكن من الأشخاص - ولا يتـم الإعلان عنهـا إلا في مراحل لاحقة. فقد كان السكرتـير الصحفي يستثنى من حضور اجتماعات «التخطيط الاستراتيجي». ولم يكن بوش يشعر أن السكرتير الصحفي يجب أن يدعى بشكل منتظم إلى اجتماعات مجلس الأمن القومي. كما استثني السكرتير الصحفي من حضور «اجتماعات الاتصالات» اليومية التي كانت تتم في المكتب البيضاوي وتضـم كلاً من الرئيس، ونائب الرئيس، وآندي كارد، وكارل روف، وكوندي رايس، وكارن هيوز (وفيما بعد، دان بارتليت).

كانت هناك بعض الطرائق للتحايل على بعض هذه الإقصاءات التي لم تكن من بينها ما تم ذكره آنفاً، بالرغم من أنني بذلت بعض الجهد كي يتم ضمي إلى تلك الاجتماعات. كان ذلك يعني أحياناً ظهورك في اجتماع لم تتم دعوتك إليه بالأساس. كان من الممكن في أحيان أخرى الحصول على معلومات كاملة وفي الوقت المناسب من أشخاص حضروا الاجتماع. وفي بعض الأحيان، كان بإمكاني التوجه مباشرة إلى الرئيس الذي كان إما يخبرني بما أردت معرفته بنفسه، أو إذا اقتضت الضرورة، القيام بإجراء مكالمة هاتفية أتحدث فيها إلى المستشار ذي الصلة. كانت هذه الطرائق الالتفافية تساعدني بشكل دائم تقريباً في الحصول على المعلومات التي أحتاجها.

كنت أشعر أيضاً أنني أتمتع بميزة إضافية لم يكن آري يتمتع بها في مسألة الحصول على المعلومات. فقد كانت علاقتي بالرئيس أكثر قدماً نظراً لأننا ذوو جذور تكساسية . شعرت بأن الجميع في دائرة الرئيس الضيقة كان ينظر إلي باستحسان وثقة - ربما أكثر مما كان آري يتمتع بهما. على سبيل المثال، عندما علمت كوندي رايس أن آري كان يطلع على ملحوظات استلت من اتصالات الرئيس بقادة الدول، قامت فوراً بسحب هذه الصلاحية منه. (كان البديل بالنسبة لي يكمن في التواجد في المكتب البيضاوي خلال إجراء هذه المكالمات الهاتفية المهمة والاستماع إلى ما كان يدور حينها بشكل مباشر). كان انطباعي أن كارن هيوز اعتبرت أن آري لم يكن أحياناً منضبطاً بما فيه الكفاية وهو على المنصة في قاعة اللقاءات الصحفية. على سبيل المثال، في إحدى اللقاءات الصحفية المصغرة، أثار آري زوبعة نارية عندما أشار إلى أن محاولة البيت الأبيض في عهد كلينتون تحقيق سلام شامل في الشرق الأوسط أدت في واقع الأمر إلى تصعيد في العنف هناك. كنت ألج إلى المكتب البيضاوي عندما سمعت كارن وهي تشكو آري إلى الرئيس بحضور كوندي. وقد أجبر آري على التراجع عن تصريحه ذاك في وقت لاحق من اليوم نفسه.

ولكن، وكما بدأت تتضح الأمور أمامي شيئاً فشيئاً، فإن ما كان مدعاة للانزعاج أكثر من مسألة القيود المفروضة على حرية السكرتير الصحفي في الوصول إلى المعلومات، هو ذلك الجو من السرية داخل الإدارة الذي يتجلى في الموقف السلبي من وسائل الإعلام الوطنية، وما ينتج عن هذه العقلية من دعم محدود للسكرتير الصحفي.

على سبيـل المثال، كان الرئيس يرغب في حفظ المعلومات ضمن نطاق البيت الأبيض. كانت اجتماعات منتظمة تعقد بين الرئيس ونائب الرئيس، أو بينه وبين آندي كارد أو كارل روف، وهـذه الاجتماعات كان لها طابع سري. وهذا أمر مفهوم - فعندما يجتمع الرئيس مـع مستشاريه المقربين، فإنهم يرغبون بالتحدث بكامـل الحرية والصراحة؛ وأي طرف ثالـث، حتى لـو كان عضواً موثوقاً في الفريـق، يمكن أن يحد من هـذه الحرية. لكن هذا الباب المغلق في البيت الأبيض في عهد بوش كان مدعاة للقلق قليلاً. فلقد كان لتشيني من السلطـة والتأثير أكثر مما كان لأي نائب رئيس في تاريخ الولايات المتحدة، ولا يعرف أحد بالضبـط كيف استطاع أن يوسع دائرة نفوذه تلك. وبسبب أنه لم يكن بمقدوري الاقتراب من طريقة تفكيره، أو إدراك الطرائق التي يقدم فيها نصائحه إلى الرئيس، فقد ترك كل ذلك ثقباً أسود كبيراً في إدراكي لما يحصل داخل الإدارة. ولقد حصل الشيء ذاته عندما لم أُحَطْ علماً بصنـع القرارات ذات الصلة، والتي اتخذت في لقـاءات ثنائية، أو لقاءات لمجموعـة صغيرة محـددة. إن البقاء في العتمة هو وضع غير مريـح البتةً بالنسبة إلى أي سكرتير صحفي.

بشكل عام، تكون لدي اقتناع بأن إدارة بوش لم تقدم سوى الحد الأدنى من الدعم لدور السكرتـير الصحفي. كانت هناك قلة قليلة فقط من بـين كبار مستشاري الرئيس الذين أيدوا فكرة أن يكون السكرتير الصحفي على اطلاع بالتغيرات في مجريات السياسة التي تجـري خلف الكواليس والأسباب وراء هـذه التغيرات. الأسوأ من ذلك كله، فحتى بعد أن يكـون السكرتـير الصحفي قد أحيط علماً بواحد من التطـورات المهمة، وتلقى التفاصيل حـول هذا الحدث من أحـد كبار المستشارين، فإنه سيجد نفســه متورطاً في لعبة الأسئلة العشرين. لا يجوز لمن تم تكليفه بإطلاع الصحافة والجمهور على الحقائق أن يفرض عليه خوض غمار مثل هذه الألعاب المثيرة للإحباط.

كان الإحبـاط الذي عانى منه آري بسبب صعوبة الحصول على المعلومات واحداً من الأسباب التي جعلته يحترق مهنياً في وقت أقرب مما توقعت. فموقع السكرتير الصحفي، مثلـه مثل أي موقع رفيع المستـوى في البيت الأبيض، هو وظيفة قاسية، ومستهلكة للوقت

بشكل لا يصدق. هناك الكثير من التحديات التي يجب مواجهتها يومياً من دون أن يتعين عليك أن تمضي وقتاً غير محدود في محاولة منك للسيطرة على مجريات الأمور، أو تحاول أن تلحق بالحدث في الوقت الذي تكون عقارب الساعة تتحرك، ويكون هناك بث حي بوجود الكاميرا والصحفيين في انتظارك بعد لحظات. ولا يجب على أي سكرتير صحفي أن ينتابه القلق من أن تكون الصحافة قد اكتشفت ما حدث داخل البيت الأبيض قبل أن يقوم هو بالإعلان عن ذلك.

مع مضي الوقت، بدأت أتبين أن السبب الذي جعل الآخرين يتعاملون مع السكرتير الصحفي بهذه الطريقة لا علاقة له بالشخص الذي يتبوأ هذا الموقع، بل هو متجذر في انعدام الثقة بوسائل الإعلام الوطنية؛ ذلك أنه لا الرئيس، ولا الغالبية الساحقة من مستشاريه في الدائرة الضيقة تعاملوا يوماً باحترام كبير مع وسائل الإعلام الوطنية بمن في ذلك طاقم الصحفيين العامل في البيت الأبيض. أشار آندي كارد ذات مرة إلى أنه يرى في وسائل الإعلام العاملة في واشنطن مجموعة «مصالح خاصة» أخرى يتعين على البيت الأبيض أن يتعامل معها كما يتعامل مع قوى الضغط أو المؤسسات التجارية. هذه الملاحظة كانت مذهلة وموحية في آن.

كان بوش شأنه شأن العديد من الرؤساء، يعد الصحافة بغيضة، أو شراً لا بد منه. فالصحفيون شرذمة من الوسطاء يقفون بينه وبين الشعب الأمريكي؛ وهم غالباً ما يبالغون في تنقية أو ترشيح رسائله الواضحة التي يوجهها إلى الشعب، ويعملون أحياناً على تخريب صورة إدارته أو إضعاف روابطها مع المواطنين. عززت الشكاوى من قبل المحافظين، على امتداد عقود من الزمن، من «وسائل الإعلام الليبرالية» والتي تعود إلى المرحلة التي وجه فيها سبيرو أغنيو نقداً عنيفاً ضد من وصفهم «بنواب السلبية المتأنقين» فرضية أن الصحافة لن تترك أبداً أي رئيس جمهوري مرتاح البال. وبسبب هذا الشحن العاطفي ضد الصحافة، لم تعتقد الغالبية العظمى من فريق بوش في البيت الأبيض بضرورة تزويد وسائل الإعلام بالكثير من المعلومات اللهم إلا القليل، القليل من البيانات المنتقاة بعناية كي تدعم موقف الرئيس، ولا توفر للمعارضة أي منصة لانتقاده.

غالبـاً ما أواجَـهُ إلى يومنا هذا، بأسئلة حول نقد «وسائـل الإعلام الليبرالية». هل هـذا صحيح؟ هل أن سبب المشكلة في واشنطن يعـود جزئياً إلى حقيقة أن الصحفيين ذوي الميـول اليساريـة هم في حقيقة الأمر في حال حرب مـع السياسيين المحافظين في محاولة منهم لإسقاطهم؟

جوابي على مثل هذه الأسئلة هو نفسه دائماً. ربما كان صحيحاً أن أغلب الصحفيين، والكتـاب والإعلاميـين العاملـين في التلفزيـون ليبراليـون مـن الزاويـة الشخصيـة، أو أنهـم ينزعـون باتجاه اليسار، ويميلون نحـو التصويت للديمقراطيـين. تؤكد صحة ذلك الاستبيانات واستطلاعات الرأي بين العاملين في وسائل الإعلام؛ إلا أن هذا الميل باتجاه اليسار ربما أصبح أقل وضوحاً في السنين الأخيرة، مع بروز تنوع أكثر اتساعاً في مصادر الأخبـار بما في ذلك فوكـس نيوز التي تسلط الضوء على شعبيـة آراء المحافظين ومن ثم حيويتهـا التجارية. الأهم من ذلـك، كل ما شاهدته بصفتي سكرتـيراً صحفياً، ومراقباً منذ مدة طويلة للمشهد السياسي ووسائل الإعلام، يشير إلى أن أي محاباة ليبرالية ليس لها سوى تأثير محدود في الطريقة التي تصل فيها المعلومة إلى الجمهور الأمريكي.

فالغالبيـة العظمى من الصحفيين – بمن فيهم أولئـك العاملون في الطاقم الصحفي للبيـت الأبيض – هـم أناس شرفاء؛ عقولهـم منفتحة ومهنيون. يبذلـون كل ما بوسعهم لتقـديم كل جوانب القصـص التي ينقلونها، وهـم بالتأكيد لا يتعاملون مـع المعلومات أو البيانات الصادرة عن إدارة محافظة بقسوة مفرطة، أو تشكيك مبالغ فيه. وحتى عندما تنساب بعض المحاباة هنا أو هناك، فإنني على يقين من أن الجمهور يراها على حقيقتها. ولم نكـن في إدارة بوش نعاني مـن أي صعوبة في إيصال كل الرسائل التي أردنا نقلها إلى الشعب الأمريكي.

وحقـاً أقول إن طاقـم الصحافة الوطنية ربما أظهر الكثير من المراعاة للبيت الأبيض ولـلإدارة فيما يتعلق بأهم قرار كان على الأمة مواجهته خلال سني وجودي في واشنطن، وأعنـي بـه شن الحرب علـى العراق. لكـن انهيار منطـق الإدارة حول أسبـاب شن هذه الحـرب، الذي أضحى جلياً بعد أشهر على شنها، لا يجوز أبـداً أن يشكل مفاجأة لأحد.

كان مـن حق الشعـب أن يكون أكثر اطلاعاً قبل هذه الوقائع، علـى كافة أشكال الالتباس والشكـوك والتوضيحات التي كانت المخابـرات تخفيها حول نظام صدام حسين. لم تفعل الحكومة إلا القليل، القليل لتوضيح هذه الالتباسات للشعب؛ وكان على الصحافة أن تركز علـى هـذا الضعف، لكنها لم تفعل ذلك لأن تركيزهـا كان في مكان آخر - تغطية المسيرة باتجاه الحرب، بدلاً من التركيز على ضرورة تلك الحرب.

في هـذه الحـال، لم ترتقِ «الصحافة الليبرالية» إلى مستـوى السمعة التي كانت تتمتع بها. ولو فعلت، لكانت قدمت خدمة أفضل للأمة.

سوف أخطو خطوة أخرى إلى الأمام في هذا السياق. إنني أميل إلى الاعتقاد أنه يجب اعتبـار وسائل الإعلام ذات التوجه الليبرالي في الولايات المتحدة أمراً إيجابياً. فعندما أعـود بالذاكرة إلى العديد من الإدارات الرئاسيـة الماضية - إدارتيّ بوش الأب والابن، وبيـل كلينتون، ورونالد ريغان، وجيمي كارتر، وجيرالد فورد - فإنني أشاهد سلسلة من القـادة المحافظين والوسطيين الذين هم إما على يمـين الوسط، أو على يساره؛ والذين نهجـوا سياسات صممت لإرضاء السواد الأعظـم من الناخبين الأمريكيين المنتمين إلى الطبقـة الوسطى. جميع هؤلاء الرؤساء كانوا علـى الأقل معتدلين فيما يتعلق بالسياسة الاقتصاديـة، وكان توجههـم ينحو بشكل عام باتجـاه تأييد رجال الأعمـال، كما كانوا ضمـن الخط العام حول معظـم القضايا الأخرى بدءاً من السياسـة الخارجية، مروراً بالتعليـم، وانتهاء بقضايا البيئـة. كما كان قادة الكونغرس الذيـن تعاونوا معهم بشكل عام، ضمن التوجه نفسه - سواء كانوا محافظين أم وسطيين. ولم يكن هناك ليبراليون متطرفون على امتداد السنين الأربعين الأخيرة يحتلون أي مواقع ذات سلطات كبيرة في السياسة الأمريكية.

ضمن هذه الظروف، يمكن لوسائل الإعلام التي ينظر إليها عموماً على أنها ليبرالية أو تنـزع نحو اليسـار أن تؤدي دوراً مهماً ومفيداً. يمكن لهـا أن تدافع عن مصالح النـاس وقضاياهـم التي تنتزع اعترافاً قصـير المدى من السياسيـين المحافظين الذين يسيرون ضمـن الاتجـاه السائد: مثـل الأقليات العرقيـة، والنسـاء، والطبقة العاملـة، والفقراء،

والمحرومـين. وكمـا يقول المثل السائد، فالصحفي الليبرالي يجـب أن يتبنى مبدأ «إراحة المعذبـين وتعذيـب المرتاحـين»، في معرض إبرازه لقضايـا يمكن لولاه أن يتـم إهمالها أو تجاهلهـا، وفضحـه للأخطـاء، ومساعدتـه لأولئك الذيـن يعملون في مجـالي الحكومة والتجارة في أن يتصرفوا بأمانة.

أكـثر من ذلك، فأنا أرحـب بوسائل الإعلام التي تعتمـد التشكيك وتبدي عدم الثقة. وكلما أمعنت في ذلك، أضحت الأمور أفضل - طالما أنها تتصرف بأمانة وعدالة. فأولئك القابعون في سدة السلطة يتوجب عليهم بشكل دائم، أن يبذلوا كل ما بوسعهم كي يكسبوا ثقـة من يحكمـون. يجب أن يكونوا أمام تحدٍ دائم لإثبات أن مـا يقومون به هو الصواب، ولإثبـات أنهم جديرون بالثقة، ولإثبات أنهم خاضعون للمحاسبة. هذه هي الطريقة التي يمكـن لنا بواسطتها الحصول على الحقائق المهمـة، وأحياناً الصعبة. ففي مجتمع اليوم المبنـي على المعلومات، سيدفع أي صحفـي أو وسيلة إعلام ثمناً باهظاً إذا تجاوز حدوده. فقد راقبت عن كثب كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث عندما ترك أحدهم في محطة CBS News الإخباريـة لتحامله المسبق أن يلوث تغطيته لأحد الموضوعات (وتحديداً الفضيحة المتعلقة بالوثائق المزورة التي استخدمها دان راثر لاتهام بوش بتلقيه معاملة خاصة أثناء خدمته في سلك الحرس الوطني). فقد جلبت حفنة من العاملين في مجال الأخبار الذين استماتوا في محاولتهم إسقاط الرئيس المصيبة على رؤوس أصحابها أنفسهم.

لـذا، لا أتفـق مع أولئك الذين ينـددون «بوسائل الإعلام الليبراليـة». إذ لا مشكلة لي مـع أي صحفي ليبرالي يؤدي وظيفته بروح مهنيـة، وكنت بالتأكيد سعيداً بالتعامل معهم بصفتـي سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض. المشكلة الحقيقيـة في وسائل الإعلام تكمن في مبالغتهـا في الترويج للغـط، وأيضاً مبالغتها في التركيز على من هـو الرابح في واشنطن ومـن هو الخاسر فيهـا، وبحثها الدائم عمن يمكن لها أن تهاجمـه. تتسبب هذه العادات السيئة في ضياع الحقائق الأكبر التي تهم المواطن في خضم هذا الخليط.

أغلب العاملين في البيت الأبيض في عهد بوش، لا يشاطرونني الرأي بشأن فوائد وجود وسائل إعلام ليبرالية التوجه. كما أظن أن القلق بشأن التحامل الليبرالي يساعد في فهم

ميـل فريق بوش لبناء جدران لعـزل وسائل الإعلام عنها. ولسـوء الحظ، كان السكرتير الصحفي يجد نفسه أحياناً خارج هذه الجدران أيضاً.

بالرغـم من كل هذه السلبيات، قبلت نصائـح أفراد الدائرة الذين استشرتهم بشأن قبـول منصب السكرتير الصحفي. فقد كانـت لي دائماً حرية الوصول إلى الرئيس الذي كان منفتحـاً عليّ بشكل مُرْضٍ. كما شعرت بأن علاقاتي مع بقية أفراد الدائرة الداخلية كانـت من المتانة بحيث إنـه كان باستطاعتي التغلب على بعض العقبات الإضافية في وجه حسن أدائي لعملي. كنت أعتقد أن باستطاعتي العمل تدريجياً لإزالة العديد من العقبات التي شعرت أنه لا مسوغ لها. ولو كانت هذه العقبات هي المشكلة الوحيدة التي واجهتني في أدائي لهذه المهمة، لاتخذت الأمور منحى آخر تماماً.

إلا أنـه وبحلول يوم الثلاثاء الواقـع في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، وهو اليوم الـذي استلمت فيـه منصبي رسمياً كسكرتـير صحفي للبيت الأبيض، بـدأت أتبين مدى صعوبـة محاولة مساعدة الرئيس في تجـاوز التحدي الأكبر الذي يواجهه - ألا وهو إعادة الاعتبار لمصداقيته التي كانت تتهاوى، وكذلك رأي الناس بأدائه.

أضحـت الشكوك حول أسلحة الدمار الشامل في العراق أقوى من أي محاولة للتغطية عليها ليس فقط خارج نطاق الإدارة، بل داخلها أيضاً. مع ذلك، كان العديد من بيننا بمن فينا الرئيس نفسه يتعلق بحبال آمال زائفة، أدرك متأخراً صعوبة تحقيقها، أنه في الوقت المناسـب فإن فريق التفتيش الـذي تقوده الولايات المتحدة بمصادر تمويله الواسعة وكثرة أفـراده سيكتشـف أسلحة صدام - وهي الأسلحـة التي كنا نعرف أنـه يمتلكها - المخبأة داخـل عنابر أو مدفونة تحت رمال الصحـراء العراقية. لم يكن باستطاعة المخابرات أن تكون أكثر بعداً عن هذا الهدف. لا بد أن يكون صدام قد خبأ على الأقل بعضاً من أسلحة الدمـار الشامل في مكان ما، في العراق. أيُّ كشف في هذا الصدد سوف يكون مفيداً. كان هذا هو الأمل الكاذب الذي حدا بالرئيس كي ينبري للإعلان أننا وجدنا أسلحة على شكل مَخبريْـن بيولوجيين متنقلـين للأسلحة - لم ينقضِ سوى القليل مـن الوقت قبل أن تعلن المخابرات أن هذين المخبرين ليسا مخبرا أسلحة على الإطلاق.

بـدأت شكوكـي الخاصة تزداد، وتتخذ شـكلاً أكثر وضوحاً وذلك قبـل أسبوعين من اعتلائـي منصـة التصريحـات في قاعة اللقـاءات الصحفية. أذكر جيـداً تلك اللحظة الفاصلـة في تطـوري النفسي - هـي لحظة قلبت فيهـا الطاولات حيث تلقـى السكرتير الصحفي رؤية قيّمة من أحد الصحفيين.

في أحـد الأيـام، أطلت آن كومبتـون، وهي مراسلة مخضرمة ومحترمـة تقوم بتغطية أخبـار البيـت الأبيض لصالح إذاعة ABC News، برأسهـا إلى داخل المكتب الذي كنت أشغلـه بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي، والذي كان يقع خلف المنصة في قاعة اللقاءات الصحفيـة، مباشرة أسفـل المنحدر حيث يتوضع مكتب السكرتـير الصحفي. ونظراً لأن المكتـب الصحفي السفلي كان متصلاً بشكل مريح بقاعـة اللقاءات الصحفية والأكشاك المتصلـة حيث كان الصحفيون التواقون إلى السبق الصحفي يعملون، فقد كانوا غالباً ما يمرون بي وبمساعِدتي الزميلة كلير بوكان، للحصول على تعليق أو معلومة. وكانت المواقع الرسميـة للصحافة – وهي عبارة عن ردهة فيها عدد مـن المكاتب الصغيرة التي هيئت من أجل مراسلي الشبكات والصحفيين الذين يستخدمون وسائل الاتصال السلكي، وكان يشغـل كلاً من هـذه المكاتب من اثنـين إلى أربعة من الصحفيين خلال أيـام العمل؛ كما كان هنـاك قبو يشغله صحفيون يعملـون في محطات الكابل، أو الإذاعة أو وسائل الإعلام المطبوعـة، وقاعة اللقاءات الصحفية نفسها في الأسفـل (لم يتم إعادة ترتيبها منذ مدة طويلـة) حيث يقبع طواقم التصوير وفنيو الصوت الذين يعملون لصالح الشبكات ضيقة ولا تتمتع بأي قدر من الخصوصية؛ لذلك كان مكتبي مكاناً أفضل لتبادل الأحاديث.

كان دائمـاً من دواعـي سروري التحدث إلى آن. بدت سعيدة جـداً بالدور الذي تؤديه كونها صحفية. كانت عضواً في الطاقم الصحفي في الحادي عشر من أيلول، وقامت بنقل مباشـر وحي لنشاط الرئيـس في ذلك اليوم بدءاً من مغادرته لمدينـة ساراسوتا في ولاية فلوريدا على متن الطائرة الرئاسية، وانتهاء بعودته إلى واشنطن مساء اليوم نفسه.

في ذلـك اليوم مـن شهر حزيران، يونيـو، دخلت آن إلى مكتبـي لتسألني عن موضوع يتعلـق بالحـرب في العراق التي كانت قـد دخلت شهرها الثالث. ومـع الإعلان عن انتهاء

العمليـات العسكرية الكبرى، فقد بدأت قـوات التحالف تقوم بعمليات تمشيط، بعد ذلك الانتصار العسكري السهـل والسريع على جيوش صدام حسين. لكن الدكتاتور نفسه كان مـا يـزال طليقاً، كما تعرضـت كميات كبيرة مـن الأسلحة والذخائر التـي لم تكن عليها أي حراسة، للنهب والسلـب بعد وقوع الغزو، وبدأ العسكريون الأمريكيون يلاحظون وقوع هجمـات مفاجئة سريعة ومزعجة تتزايد يوماً بعد يوم تقوم بها مجموعات من المتمردين العراقيـين الذين تـزداد أعدادهـم باستمرار، خصوصـاً في المنطقة التـي تدعى المثلث السنـي. بـدأ التفاؤل الكبـير –وحتى الاحتفالي– يتراجـع أمام القلق بشـأن الاحتمالات المستقبلية حول العراق.

وعندمـا بدأ الحديث ينحو باتجاه موضوع أسلحة الدمار الشامل، كنت أكرر الموقف الثابت للبيت الأبيض في ذلك الوقت، والذي كنت أتفق فيه معه: «إننا واثقون أن أسلحة الدمـار الشامل سوف يتـم اكتشافها في النهاية. فالمفتشون مـا زالوا في المراحل الأولى من عملهم».

كانـت ردة فعل آن غايةً في الوضوح. فقد أكدت بكل ثقة «أنهم لن يجدوا أي أسلحة. ولـو كانت هـذه الأسلحة موجـودة فعلاً، لكانـوا اكتشفوها قبـل الآن». تحدثت بأسلوب مملـوء بالثقة باعتبـار أنها صحفية عملـت في واشنطن لفترة طويلة كانـت كافية لكي تتوقع طبيعة نهاية هذه القصة.

شعـرت بالاضطراب لبرهـة وجيزة؛ ولكن بعـد أن غادرت آن مكتبـي، أخذت معها هـذه الحقيقة الصعبة التي واجهتنـي بها. فقد وجدتني أكرر في داخل رأسي من جديد وبسرعـة، النقاشات المنطقية التـي كنا نؤكدها على امتداد أيام حـول اقتناعنا بوجود أسلحـة دمار شامـل عند صدام، بالرغم من أن كشفها هـو في غاية الصعوبة – وكانت هـذه النقاشات تركز على تاريخه الذي يؤكد على امتلاكه لها واستعمالها، وعلى سجله الممتلئ بخداع مفتشي الأمم المتحدة والاستهانة بذكائهم، وعلى التقارير المتماسكة التي قدمهـا محللون استخباراتيون ليس فقط من بيننا بل مـن بين حلفائنا أيضاً. كنا نذكر أنفسنـا بأن فريـق التفتيش على الأسلحـة الذي كان يطلق عليه وصـف مجموعة مسح

العراق، والذي كان يرأسه ديفيد كاي كان ما يزال يجوب في أميال من الوثائق الحكومية العراقيــة، ويقوم بترجمتها من اللغــة العربية، ويبحث في مواقع مكشوفة من البلاد بعد تلقــي معلومات حول عنابر تحــت الأرض ومواقع دفن محتملة لهــذه الأسلحة المراوغة. كان صــدام حســين حاكماً مراوغاً ممتلئــاً بنَفَس التحــدي، وكان يتلاعب بالمفتشين في الصحراء على امتداد سنوات.

لجملةِ هذه الأسباب، كانت الشكوك ما زالت تنتابنا بشأن وجود هذه الأسلحة. وكانت هذه النقاشات نفسها التي استمر البعض منا في طرحها في الأشهر اللاحقة - بالرغم من أننــا بدأنا في نهاية المطاف بالتأكيد على وجود «برامــج» لأسلحة الدمار الشامل بدلاً من وجود أسلحة الدمار الشامل، في الوقت الذي بدأ فيه عدد متزايد من الناس خارج دائرة البيت الأبيض يعتقدون أن المسوغ الرئيس للغزو خرج بشكل فج عن مساره الأصلي.

لكــن كلمــات آن كومبتون كانت تطــاردني في أعماق داخلي. وكانــت تجول في خاطري عندما قمت برفقة كارن هيوز، المستشارة السابقة للرئيس، بزيارة مكتبي الجديد، وذلك في اليوم الأول لاستلامي منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض.

التقيــت بــكارن بالمصادفة بعد وقت قليــل من انتهائي من لقائــي الصحفي الأول في منصبــي الجديد. قالت وابتسامة تعلو وجهها: «استمعت إلى جانب من تصريحك؛ كيف كان شعورك؟».

أجبت: «أظن أن الأمر مر بسلاسة، بشكل عام». كنا قد تورطنا في اللغط الذي سببته الكلمــات الســت عشرة التي تلفــظ بها الرئيس في خطابه حول حــال الاتحاد - تبين فيما بعد أنه لا أساس له - من أن العراق حاول الحصول على مواد لصنع الأسلحة النووية من أفريقيا. في ظل هذه الظروف، ونظراً لأن الطاقم الصحفي في البيت الأبيض أضحى أكثر جــرأة في تحديه للبيت الأبيض، تبين لي أنه لن يكــون هنــاك مرحلة شهر عسل للسكرتير الصحفــي الجديد. لكــن الصحفيين المجتمعــين في البيت الأبيض أبــدوا بعض التساهل تجاهي في اليوم الأول لاستلامي المنصب الجديد. فقد كانوا يعرفون أن لديهم الكثير من الفرص للقيام بهجمات لفظية عليّ في الأشهر اللاحقة.

عقبت كارن قائلة: «بدوتَ مرتاحاً هناك من على المنصة».

قلت: «شكراً لك. لم تسنح لنا الفرصة للتحدث إلى بعضنا بعضاً منذ مدة. إذا كان لديك القليل من الوقت، فإنني أود القيام بزيارتك وسماع آراءك حول هذه الوظيفة».

قالت: «بالتأكيد، فباستطاعتي أن أنزل إليك في مكتبك بعد قليل».

كانت كارن قد استقالت من موقعها كمستشارة للرئيس منذ أكثر من سنة، أي في شهر حزيران، يونيو، سنة 2002 بسبب الإنهاك الشديد الذي ألمّ بها جراء قضائها ساعات عمل لا عدّ لها في البيت الأبيض، وبسبب توقها لقضاء وقت أطول مع زوجها وابنها المراهق، روبرت. كانت ما تزال تعمل بدوام جزئي مستشارةً للرئيس، ولخليفتها دان بارتليت ، وبعض كبار موظفي البيت الأبيض، حيث كانت تأتي إلى واشنطن مرة كل عدة أسابيع للمشاركة في مناقشات الصورة العامة للإستراتيجية. ومع قرار الرئيس ترشحه لإعادة انتخابه، فقد بدأنا نراها في أغلب الأحيان.

جلسنا إلى طاولة المؤتمرات المستديرة في مكتبي، قرب المدفأة. خارج النافذة، كان المدخل في نهاية الممر المؤدي إلى المدخل الرئيس للجناح الغربي، حيث كان أحد أفراد المارينز يحرسه ببذلته الزرقاء. كانت أربع شاشات تلفزيونية من حجم ثلاثة عشر إنش تومض بصمت على أحد الجدران، مبرمجة بشكل نمطي على ثلاث من محطات الكابل الإخبارية بالإضافة إلى محطة C-Span، ما عدا بعض أيام العمل في عطلة نهاية الأسبوع عند بث برنامج رياضي بعنوان Texas Longhorns على محطة C-Span، أو على أي محطة أخرى تبث بعض البرامج الخفيفة. إزاء جدار آخر، كانت تقبع أريكة مريحة تحت صور كبيرة للرئيس – واحدة منها له وهو يزور إحدى الوحدات العسكرية، وأخرى في احتفال لإحياء ذكرى أحداث الحادي عشر من أيلول، وصورة ثالثة يشارك فيها والده الضحك في أول لحظة ولجا فيها عتبة المكتب البيضاوي بصفتيّ الرئيس والرئيس السابق يوم حفل توليه المنصب سنة 2001.

قامت كارن مباشرة بتوجيه أهم نصائحها لي. كانت تلك النصيحة تتعلق بمسألة المصداقية. قالت: «إن أهم ما يجب عليك القيام به في رأيي، هو التأكد من احتفاظ

الرئيس بمصداقيته أمام الشعب الأمريكي، فهي واحدة من أعظم مظاهر قوته. الشعب يثق به؛ ولذلك يجب أن تبقى نسبة مؤيديه بسبب صدقه وجدارته بالثقة عالية جداً في استطلاعات الرأي.

وتابعت قائلة: «أظن أن لديك فرصة حقيقية كي تكون سكرتيراً صحفياً مؤثراً للغاية. فالصحافة تحبك. وهم يعرفون أن بإمكانهم الوثوق بك، وإذا أحسنت إدارة عملك بالشكل الذي أنت قادر على القيام به، فسيذكرك التاريخ على أنك مايك ماكري آخر».

كان هذا بمثابة إطراء مُرْضٍ ذي نَفَسٍ حزبي. فمايك ماكري كان السكرتير الصحفي لبيل كلينتون، والذي بقي في هذا المنصب أكثر من أي شخص آخر. أكثر من ذلك، فقد استطاع أن يبني لنفسه سمعة شخصية قوية ويحافظ عليها مستنداً في ذلك إلى مصداقيته بين صحفيي البيت الأبيض، وفي دوائر واشنطن بالرغم من أنه كان يقوم بعمله في وقت كان التأييد للرئيس على الصعيد الشخصي، وما أثير حول سمعته فيما يتعلق بأمانته يتناقص بسبب ما كشف عن مغامراته الخاصة.

لكن امتناني لكلمات لكارن كان يشوبه القلق. ذلك أنه لم يكن بوسعي نسيان تعليقات آن كومبتون قبل أسبوعين. ولم يحدث أي شيء منذ ذلك الوقت يمكن أن يؤدي إلى تحسين الأمور. وكما تكشفت الأمور شيئاً فشيئاً، فإن المنطق الرئيس الذي سوغنا خوض الحرب ضد العراق على أساسه يمكن أن يكون خاطئاً كلياً. كنت أعلم أنه سوف يكون من الصعوبة بمكان إزالة التوتر الناجم عن ذلك، أو تخفيف المشاحنات التي ستحصل في قاعة اللقاءات الصحفية. فاللغط الناجم عن الكلمات الست عشرة كان مؤشراً أولياً، وسوف يستمر تأثيره مستقبلاً. وهكذا وجدتني أرى، وبشيء من الحزن، أن آري انسحب في الوقت المناسب - حتى أنني مازحته حول هذه النقطة. قلت له: «لقد اخترت الرحيل في الوقت المناسب».

لم تكن الكارثة قد ظهرت بعدُ في الأفق. فعلى المدى القصير، كانت غالبية الناس تنظر إلى الانتقادات المتصاعدة للرئيس ككتلة كبيرة من الملح. فقد كانت الانتخابات تلوح في الأفق، وكان الناخبون يعرفون أن لغة الخطاب الرنانة ستكون أكثر حرارة. عندما يحس

الناخبون أن هجمات كهذه ليست أكثر من محاولة حزبية لتمريغ الخصم في الوحل، فإنهم يميلون إلى عدم الخضوع لتأثير مثل هذه الهجمات محجمين عن إطلاق أي أحكام إلى أن يتحققوا من صحة الانتقادات. كما أن الكثيرين من الأمريكيين الذين بدؤوا يتقبلون فكرة أنه لن يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل في العراق، كانوا ما يزالون على موقفهم الداعم بقوة للحرب - على الأقل حتى الوقت الحاضر. كانوا يقولون بشيء من اللا مبالاة: «لقد خدع صدام بوش؛ وماذا في ذلك؟ لقد خدع الجميع أيضاً. وهذا لا يغير حقيقة أنه كان قاتلاً متوحشاً ودكتاتوراً. إنه لأمر حسن أن يتم التخلص منه».

لكن العوامل التي صبت في صالحنا على المدى القصير لم تكن كذلك على المدى الطويل. فاستطلاعات الرأي المؤيدة لنا حجبت الرؤية عن بصائرنا. فقد افترضنا أن صبر الناس على الرئيس، وعلى الحرب سوف يستمر ما دمنا مستمرين في إظهار أننا نحرز تقدماً في مسألة تحقيق الديمقراطية في العراق. لكن الأعداد المتزايدة باطراد من القتلى والجرحى في صفوف الجنود الأمريكيين كانت تثبت كم كنا على خطأ. لقد أدى نجاحنا في الوصول إلى ما وصلنا إليه بسبب احتكارنا للتأييد الشعبي واستخدامه لصالحنا - وتجلى ذلك في حملتنا الدعائية السياسية لتسويق الحرب - إلى جَعْلِنا نفترض أن المقاربة نفسها سوف تستمر في خدمة مصالحنا، وستساعدنا في التغلب على أي تحديات مستقبلية. لقد كان من الصعب، ونحن على أعتاب حملة إعادة الانتخاب، تغيير النهج الذي سرنا عليه بسبب ابتعادنا منذ البداية عن ممارسة مقاربة واضحة وصريحة في تحضيرنا للحرب، سواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد،

كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته باعتباري سكرتيراً صحفياً يتجسد في عجزي عن الوقوف في وجه هذا النوع من التفكير المتجذر في البيت الأبيض في عهد بوش. ولكن عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، يتبين لي أنه كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي القيام بذلك. فالأوراق التي كان عليّ أن ألعبها كانت مكشوفة حتى قبل أن أقبل القيام بهذه الوظيفة، وهذا يعني أن النتيجة غير المرضية لسنوات عملي كسكرتير صحفي كان مقدراً لها أن تكون كذلك، وذلك منذ اللحظة التي خطوت فيها تلك الخطوة باتجاه المنصة للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم من شهر تموز، يوليو.

ومهمـا يكن نوع تلك القـوة المؤثرة خلف الطبيعـة القتالية والسريـة والباطنية للبيت الأبيض في عهد بوش، فإن بناءها كان قد أسس له بقوة في الوقت الذي طلب إلي أن أكون السكرتير الصحفي. وكان بإمكاني التأكد حينها أنه من غير الممكن أن تتغير بشكل ملحوظ أثنـاء مدة توليتي لهـذا المنصب، خصوصاً وأن حملة إعادة الانتخاب كانت على الأبواب. لم يكـن ذلك هو الوقت المناسب بالنسبـة إلى أي شخص للقيام بإجراء أي تغييرات على واقع الحال. وفي النهاية، قررت قبول المنصب بسبب المحبة التي أكنها للرئيس، والالتزام بالخدمة العامة، وبسبب اقتناعي بأن هذه هي فرصة العمر بالنسبة لي.

ونظـراً إلى أنني كنت قـد استسلمت للقيود والصعوبات المتلازمـة مع طبيعة منصب السكرتـير الصحفي في البيـت الأبيض في عهد بوش، فقد ساورتنـي الشكوك بأن هناك ثمنـاً لا بـد من دفعه. وفي الوقت الذي لم أكن أعـرف بالضبط ما هو هذا الثمن، فإنه لم يدر في خلدي أن هذا الثمن سيكون باهظاً جداً. كما أنني لم أتوقع أن تكون بعض الدروس المستقاة من هذا المنصب الجديد مؤلمة بهذا الشكل.

obeikandl.com